موقف الإسلام من الطغيان وترسيخ الاستبداد

حين يتأمل المرء واقع الأمة العربية اليوم، يجد استبداد السلطة وفساد الحكم متصدرين المشهد نافذين إلى تفاصيل الحياة ومصادرين لإرادة الشعوب، غير أن هذا الفساد المتفشي لا يأتي من فراغ، فهو يجد بيئة يهيئها الصمت ويترسخ فيها الاستبداد عبر تدجين متدرج للوعي واعتياد بطيء للظلم، حتى يغدو الجور في عيون الناس أمرًا مألوفًا وربما قدرًا لا يرون سبيلًا إلى تغييره، وتبدأ إحدى أخطر مراحل الطغيان حين يستكين المظلوم إلى هوانه ويتحول الخوف من موقف عابر إلى طريقة في التعامل مع الواقع فتفقد الأمة شيئًا من فاعليتها وتصبح الجموع أقدر على احتمال الظلم من قدرتها على دفعه.

ولقد جاء الإسلام ليحرر إرادة الإنسان من الخضوع للبشر ويرفض أن تتحول الطاعة إلى وسيلة لإسقاط الحق وإسكات المظلوم، وحين أثنى القرآن على المؤمنين جعل الانتصار للبغي ودفعه من صفاتهم، فقال سبحانه وتعالى في سورة الشورى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) وجاءت هذه الصفة في سياق صفات أخرى من الإيمان إلى جوار التوكل والصلاة والشورى والعفو فلم تُذكر مدافعة البغي بوصفها موقفًا عارضًا تفرضه الظروف وإنما جاءت ضمن الصورة التي رسمها القرآن للمؤمنين.

وقد تُتخذ مقولة "الناس على دين ملوكهم" ذريعة لتبرير السلبية وجعل الحاكم محور الصلاح والفساد وحده، غير أن الرؤية القرآنية أعمق من ذلك فالفساد قد يبدأ من رأس السلطة لكن استمراره يحتاج إلى من يطيعه ويُمكّنه ويعتاد ما يفعله، وقد لخص القرآن جانبًا من هذه العلاقة في قوله تعالى في سورة الزخرف: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) فلم يقل: "فقهرهم فأطاعوه" وإنما وصف أثر الاستخفاف في قومه ثم أتبع ذلك بطاعتهم له، والآية لا تبرئ فرعون من ظلمه لكنها تكشف أن السلطة حين تجد من يستجيب لها ويقبل استخفافها تجد في ذلك ما يعينها على الاستمرار، فلا يعود الحاكم وحده مسؤولًا عن فساد الحكم فالأمة التي تطيع الظلم وتعتاده تتحمل من تبعته بقدر ما أتاحت له من مجال.

وجاء التحذير الإلهي من الركون إلى الظالمين في قوله تعالى: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) والركون يتجاوز معنى الخوف، فهو ميل واطمئنان وموافقة تجعل الظالم أقرب إلى النفس وأخف وقعًا على الضمير، وقد يخاف الإنسان الظالم وهو كاره له، أما أن يألف ظلمه أو يرى في القرب منه مصلحة تبرر السكوت عن باطله فذلك لون آخر من العلاقة بالظلم حذّر القرآن منه بهذا الوعيد الشديد.

ثم لا يقف القرآن عند النهي عن الركون إلى الظالم وإنما يستنهض القادرين لنصرة المستضعفين، فيقول سبحانه: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا) فالخطاب لا يوجه إلى المستضعفين وحدهم وإنما يخاطب القادرين أيضًا: ما الذي يمنعكم من نصرة من لا يستطيعون دفع الظلم عن أنفسهم؟ وفي ذلك معنى يتجاوز النهي عن قبول الظلم إلى تحميل القادر مسؤوليته تجاه المظلوم.

وتتجلى منزلة مواجهة الجور في جهاد الكلمة وصدق النصح، فقد قال النبي ﷺ: "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر" فالكلمة أمام السلطان الجائر لا تواجه مجرد خصم في نقاش وإنما تواجه صاحب سلطة يملك القدرة على العقوبة والمنع، ولذلك يكون قول الحق في هذا الموضع اختبارًا للصدق حين تصبح السلامة الشخصية مصلحة تدفع إلى الصمت، وجاء في الحديث الآخر: "سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" فجمع الحديث بين حمزة رضي الله عنه، وبين رجل واجه إمامًا جائرًا بالنصح والأمر والنهي، في بيان عظم منزلة مواجهة الجور بالحق.

والتاريخ الإسلامي لا يخلو من نماذج واجهت حكاماً وصمدت فحين استبد الحجاج وسفك الدماء وقف أمامه سعيد بن جبير متمسكاً بكلمة الحق وهو يعلم أنها قاتلته. وحين سعت السلطة في عهد المأمون ثم المعتصم لتفرض برأيها على الأمة بالقوة في فتنة خلق القرآن وقف الإمام أحمد بن حنبل صلباً أمام بطش السيف والسجن رافضاً المداهنة أو تسويغ الباطل، وتعاقب على هذا الدرب رجال آثروا الحق على السلامة ولم يقبلوا بالخنوع، ورسّخوا في التاريخ أن الكلمة الصادقة تبقى بعد صاحبها حين يذهب الجبابرة وتُنسى عروشهم، وهذا ما يفسر لماذا يخلد التاريخ أصحاب المواقف، بينما لا يذكر الحكام المستبدين إلا مقرونين بجورهم فالسلطان يملك القوة في لحظته، والكلمة تملك البقاء

وعلى المسلم أن يعتصم بالله ويستمد عزته منه، فالمسلم الذي يعرف أن عبوديته لله وحده لا يجعل من الخوف من البشر مقياسًا للحق، ولا يألف الهوان حتى يصبح له طبعًا.